تطور الاتجاه نحو وحدة عالمية

[وهي محاضرة ألقاها معاليه بقاعة بورت الذكارية]

لصاحب المعالى محمد حافظ رمضان باشا

دعانى قسم الخدمة العامة إلى أن أفتتح موسمه الثقافى هذا العام عن تطور الاتجاه نحو وحدة عالمية . وإنى لأشكر للقائمين بالأمر فيه هذه الدعوة ؛ وإنى أتقبل بالسرور أن أساهم بنصيب فى نشر الثقافة العامة فى مصر . ومما يسعدنى أن المعاهد العلمية والدوائر السياسية فى هذه الأيام تبدى اهتماماً بدراسة مصير العالم من حيث ارتباط بعضه ببعض ، فإن الله قد بعث أرواحنا فى هذه الحياة كشعلات مضيئة تنمو بالمعرفة وتزداد نوراً بالتضامن، وقد وضع فى قلوبنا بذور السعادة فلا محل لأن ننتزعها بالحرمان والتفكك بل يجب أن ندعو دائما إلى الحقائق العلمية .

إن السلام العام لا يتم بترك الأمور تجرى فى طريقها ، فحوادث العالم وتاريخها وطبيعتها كلها تحملنا على القول بأن نار الحروب لن تخمد ، ولكن جهود التخريب يمكن مغالبتها بالعمل على تحويل وجهة الحوادث ، وهذه المهمة تقع اليوم على عاتق الشعوب أكثر

إذا استقل بها ، ميسرة للجماعة إذا تعاونت عليها ، فماذا على شبابنا الفضلاء المتفرغين للفلسفة بأنواعها لو تقاسموا بينهم آثار الحكيمين جميعاً ففرغوا منها فى عام واحد أو عامين ؟

إن فى أرسطو وأفلاطون لما يصلح العقول ويقوّم التفكير حتى فى هذا الزمان ، وما تباعد فيه الخلف بين آرائهما وآراء عصرنا حقيق بالدراسة كتلك الآراء الخالدة التى لم يطرأ عليها الخلف والتغيير، لأن دراسته دراسة لعقل الإنسان ، وهو موضوع الدراسة فى كل أوان

وعمل الجمعية الفلسفية ناقص إذا بقيت اللغة العربية بين لغات الحضارة خلواً من ترجمة صحيحة للحكيمين الخالدين ، وظننا بها أنها قادرة على التمام

وطلب التمام على من يستطيعه فرض عين فى لغة الحكماء ، وهى هنا قريبة من لغة المتصوفة ولغة الفقهاء

عباس محمود العقاد

من غيرها ، وهو أمر يتوقف على إرادتها الإجماعية . وهذه الإرادة لابد أن توجه مجرى الحوادث إلى طريق وحدة عالمية للأمن والسلام

ولا ريب أن التطور الذى نشاهده اليوم نحو هذه الوحدة ليس وليد هذه الحرب بل قد بدأ منذ أواخر القرن الثامن عشر عندما اخترعت الآلات الصناعية وانتشرت فى مناطق الفحم والحديد فتوجهت جهود الشعوب إلى ميدان الصناعة والاقتصاد وبدأ العالم يتجه نحو وحدة اقتصادية ؛ وإذا كان أساطين السياسة قد جهلوا أو تجاهلوا هذا التطور منذ بدايته مدفوعين بأغراض سياسية فإنهم اليوم يجهرون به ويعملون لتنظيم العالم تبعا لمقتضياته .

وإذا كان مفهوماً أيها السادة فيما مضى مع تباعد الأمم وعزلتها أن يقوم للوطنية المبنية على وحدة الجنس واللغة وحدها قائمة فقد أصبحت حال شعوب العالم اليوم مرتبطا بعضها ببعض ، وأصبح القول بغير ذلك ضربا من الأثرة يرضى به كبار الساسة خيلاءهم . ولا عجب فالعالم يتطور قطعا نحو وحدة عالمية. إذ قد ارتبطت أجزاؤه كلها برباط وثيق وأصبح ما يصيب أدناه يشعر به أقصاه شعوراً ليس مبناه العاطفة وحدها وإنما أساسه المنفعة . فما أحرى الناس أن يكونوا جميعاً فى الإنسانية إخواناً يتميز الصالح بعلمه وعمله لا القوى ببطشه وجبروته ؛ وهى كلمة قالها الله تعالى فى كتابه : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وهكذا قالها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ولم يجعل للعرب فضلا على من عداهم من الأمم بل سوى بين الجميع وجعل الأفضلية للتقوى وللعمل الصالح المفيد

سادتى :

قبل أن أتحدث إليكم عن أثر الواقع فى تطور العالم اليوم نحو وحدة عالمية يجدر بى أن أضع أمام أنظاركم صورة من هذا التطور فى القرن التاسع عشر فأروى لكم ما تحدث به مستر كارول رايت الذى كان مديراً لمكتب العمل بالولايات المتحدة فى أحد تقاريره من أنه كان يوجد صانع مسامير يدعى يوناتام فى ولاية نشوسيت وقد رأى فى منامه فى ليلة من ليالى عام ١٨١٣ شبحاً يطلب إليه أن يرفع أجور عماله بما يوازى النصف وأن يخفض ثمن مبيعاته بما يوازى الثلث تقريباً ، فصحب يوناتام قائلا إنه بهذا يسير نحو إفلاس محقق ؛ ولكن الشبح أخبره أن أرباحه ستضاعف أضعافا

مبتاعة. وباسيقظ يوناتام من رؤياه منزعجاً وهو يعجب لهذا الأمر. ولم يمض وقت طويل حتى قدم إليه بعض المهندسين بآلة صناعية تدار بالبخار لعمل المسامير؛ وما استخدمها يوناتام حتى تضاعف إنتاجه ونقصت أثمانه واتسعت تجارته وكثرت أرباحه وأصبح هو وأحفاده من أغنياء أمريكا.

يؤكد المستر كارول أيضاً أن هذه الرؤيا لم تكن خيالاً وإنما كانت حقيقة واقعة، إذ أنه أجرى تحقيقاً دعمه بالأسانيد والأرقام فيما أنتجته الآلة البخارية التي استخدمها يوناتام من نتائج يستخلص منها أنه مع تضاعف أجور العمال قد تضاعفت الأرباح وتحقق للمستهلكين وفر كبير في أثمان المبيعات. وكذلك تحققت رؤيا يوناتام التي كانت في ظاهرها حلماً من الأحلام.

أيها السادة:

إن اختراع الآلة الصناعية يدل على مبلغ التطور الذي حدث للعالم ويؤيد أن صاحب العمل والعامل والمستهلك جعلهم جميعاً يستفيدون وكانوا قبل أن توجد خصوماً لا ينتفع أحدهم إلا على حساب الآخرين.

هذا هو حادث يوناتام عندما استعمل الآلة الصناعية، وتذكرون بجانبه ما كان من أمر الزعيم غاندي في الهند إذ دعا منذ سنوات إلى العودة لاستعمال مغزل القرون الوسطى فلم يصب طريقته النجاح في مزاحمة الآلة الصناعية، فاضطر الهنود بعدها إلى استخدام الآلات للغزل والنسج. ذلك لأن الحياة في هذا العصر غيرها في عهد القرون الوسطى، ولأن الآلات الصناعية حلت محل الأعمال اليدوية بسبب سرعة إنتاجها وقلة تكاليفها:

ويظهر من هذين الحادثين أن الآلة الصناعية جعلت من حلم يوناتام حقيقة ومن حقيقة غاندي حلماً لم يتحقق، والواقع أنه منذ اخترعت الآلة وسخرت لخدمة الانسان أحدثت انقلاباً كبيراً في حياة الشعوب والأمم اقتصادياً واجتماعياً بل وسياسياً. وإذا كان هذا الانقلاب لم يتخذ شكلاً ظاهراً منذ قرن كما هو واضح لنا الآن فما ذلك إلا لأن هذا التطور لم يحدث طفرة، ولأن ارتباط الشعوب اقتصادياً كان متمشياً مع انتشار الآلات وتحسينها تدريجياً وتخصص كل بلد بما اعتاد صناعته.

فإليكم ما حدث في انجلترا مثلاً عندما استخدم رجال الصناعة آلة الغزل التي اخترعها هارجريفز « Hargreaves » في منتصف القرن الثامن عشر فإنهم لم يفكروا أصلاً في غير أرباحهم ولم يخطر ببالهم أنهم — سيحدثون انقلاباً عظيماً في حياة الأفراد — وفي علاقات الدول إذ أن الواقع أن انتشار صناعة الأقمشة الصوفية والأجواخ في انجلترا فتحت أمام نشاطها آفاقاً جديدة فأوجدت لها أسواقاً عالمية جعلت مقادير الصوف الخام — من الخراف الإنجليزية غير كافية لسد حاجات تلك الأسواق الكبيرة فولت الصناعة وجهها شطر أستراليا والأرجنتين وغيرهما لتستورد منها الأصواف فانتعشت بهذا تربية الأغنام في تلك البلاد الناشئة وأصبحت في انجلترا قاصرة على تحسين النسل، وبهذا اختصت انجلترا بالغزل والنسج، واختصت أستراليا والأرجنتين بتربية المواشي حتى قيل إن أجر جز الصوف في أستراليا يوازي ثمنه، وأن قطعة القماش من الجوخ المصنوع في انجلترا من صوف استراليا أقل ثمناً في سدني باستراليا من مثلها المصنوعة في استراليا نفسها؛ ذلك لأن كلا البلدين أصبح مع مرور الزمن إخصائياً في عمله لا يستطيع الآخر أن يزاحمه فيه.

وكان الحال كذلك في الأقمشة القطنية، فمنذ عرف أن الناخ الرطب في منشستر صالح لغزل ونسج الموسلين ونحن نشهد إقامة الأنوال والمناسج في انجلترا وأمريكا وغيرها كما نشهد زراعة القطن في المساحات الواسعة في دلتا المسيسبي « Mississipi » ودلتا النيل وغيرها.

وكل ما قيل بصدد الصوف والقطن يقال بالنسبة لباقي المصنوعات من آلات حتى المواد الغذائية وغيرها.

هذا ولا ريب أن نقل المواد الأولية من الأقطار البعيدة إلى الأقطار الصناعية ثم توزيعها مصنوعة إلى البلاد الأخرى يقتضي تحسين طرق المواصلات البحرية والبرية، ولهذا نرى منذ منتصف القرن التاسع عشر بناء السفن البخارية فضلاً عن مد خطوط السكك الحديدية والخطوط التلغرافية كما نرون العمل على تحسين طرق المواصلات الجوية والوصول بها إلى أوجها — كل هذا جعل الكرة الأرضية معروفة اليوم بسكانها ومعادنها وحاصلاتها؛ فإذا بسطنا خريطة جغرافية رسمت قبل اختراع الآلات وجدنا مساحات واسعة مؤشرا عليها بما يدل على أنها مجهولة لنا كحوض الأمازون

ووسط إفريقيا واستراليا نفسها ، أما اليوم فقد اكتشفت الارض جميع ما تملك وعمل على استغلال كل ما بها بل وأصبحت ملاد العالم مرتبطا بعضها ببعض وتأثر بعض الأمكنة بما يحدث في الأخرى

فاذا ما ظهرت دودة القطن في مصر ، أو نزل الصقيع على محصول بأمريكا ، أو حدث إضراب العمال في المصانع الانجليزية هبطت أسهم شركات النسيج أو ارتفعت أثمان الصوف تبعاً لهذا .

كذلك إذا ما حدث اضطراب في وسائل النقل اضطربت حياة الشعوب والأمم ، فقد رأينا كندا في الحرب الماضية تستخدم القمح كوقود لأفرانها بينما كانت شعوب أوروبا لا تجد الخبز بغير البطاقات بشق الأنفس .

والخلاصة من هذا كله أن التطور الصناعي خلق أسواقا عالمية سواء لأجل استيراد المواد الأولية أو لتصريف المنتجات الصناعية وأن هذه الحالة تقتضي طبعا المزاحمة الأجنبية فلا يتسنى بسبب هذا الترابط الاقتصادي لأية أمة أن تستهلك وحدها كل محصولاتها أو كل منتجاتها فهي مضطرة أن تبحث عن أسواق للفائض عن حاجاتها وتتخذ لهذا الغرض إجراءات داخلية تأخذ شكل الحواجز الجركية ، وإجراءات خارجية تأخذ شكل المعاهدات التجارية في صيغة « أولى الدول بالمراعاة » فإذا ما تصادمت مصلحة دولتين في كل هذه الميادين قامت بينهما حرب تجر وراءها بسبب الترابط الاقتصادي العالمي حرباً عالمية .

ولقد شهدنا في مدى جيل ولحد حربين عالميتين وعرفنا الفروق بين هذا النوع من الحرب والحروب الأخرى، ففي العهود السابقة كانت الحرب موضعية تقع بين بلدين أو أكثر ولكنها لم تكن لتتعدى الجيوش المحاربة ، وكانت تبتدىء وتنتهي دون أن يشعر باقي الأهالي المدنيين الآمنين بأهوالها ، بل كانت أشبه شيء بعملية جراحية تلتئم جروحها سريعاً في موضعها لتعود الحياة العادية كما كانت من قبل .

أما الحروب العالمية اليوم فهي حروب تجند من أجلها الشعوب فيرسل الشبان إلى ميادين القتال ، والشيوخ إلى مصانع الأسلحة والعتاد، والنساء إلى المزارع والمستشفيات؛ كذلك تجمع من أجلها القوات الزراعية والصناعية والمعدنية والمالية ؛ وفوق ذلك فان ويلاتها وأهوالها تمتد من ساحة الوغى إلى ما وراء خطوط القتال فتخرب المصانع وتهدم المساكن وتدمر الطرق والجسور وتغرق البواخر وتقطع المواصلات البرية والبحرية كما تزهق أرواح الأبرياء من النساء والأطفال ثم تعقبها بعد انتهائها الثورات السياسية والأزمات الاقتصادية .

سادتي :

لقد احتمل العالم هذه الويلات زهاء أربع سنوات في حرب سنة ١٩١٤ وست سنوات في الحرب الأخيرة ؛ فاذا كانت المدنية الحاضرة لم تندثر معالمها وإذا صح أن يكون ذلك دليلا على مالتلك المدنية الصناعية من قوة المقاومة إزاء هذا التدمير والتخريب فقد صح كذلك وجود عيوب في نظام العالم الحاضر الذي لم يستطع أن يتفادى في مدى جيل واحد حربين عالميتين من هذا النوع في التدمير والتخريب الذي لا مثيل له في تاريخ الانسانية . وفي يقيننا أن هذه الحال لن تتغير وأن احتكاك الدول لن يتبدل مالم نعمل على أن ندخل في نظام حياتنا العامة وعلاقاتنا الاقتصادية ما يضمن لنا الاستقرار والاطمئنان .

ولا ريب أن كل شيء في هذا الوجود يولد ثم ينمو ويشب ثم يكبر ويهرم فيموت ؛ لذلك كان نظام الحكم وعلاقة الدول بعضها من أكثر الأمور تطوراً لا في المظاهر الشكلية بل في جوهر الأمور وكيانها ؛ فان الخمسة والعشرين قرناً الماضية من تاريخ الإنسانية تشهد بأن نظام العالم قد انتقل من حكم أقوى العائلات إلى نظام الجمهوريات اليونانية القديمة ، إلى محاولة إيجاد الامبراطوريات العالمية في عهد الإسكندر والدولة الرومانية ، إلى نظام الاقطاع في القرون الوسطى، إلى نظام الملكية المطلقة ، إلى الديموقراطية الحاضرة .

إن هذا التطور الدائم في نظام الحكم جاء تبعاً لتطور الحياة الاجتماعية والسياسية في تلك الأزمان الماضية .

كما لا ريب عندنا في أن العالم في وقتنا الحاضر وهو تحت تأثير الاكتشافات العلمية واختراع الآلات الصناعية وإتقان طرق المواصلات بين أجزاء العالم قد تطور تطوراً خطيراً من شأنه أن جعل جميع الشعوب والأمم التي وصلت إلى درجة ما من المدنية مرتبطة بعضها ارتباطاً اقتصادياً فلا يسع شعباً من الشعوب أن يستكفي وحده بكافة حاجاته من المأكل والملبس وغيرها بل هو في حاجة إلى تصدير الفائض ، وبجانب هذا فان العلاقات بين الدول كانت تتطور حتى أخذت شكل القانون الدولي الذي كان يتطور هو كذلك تبعاً لمقتضيات الظروف بعد كل نزاع .

(البقية في العدد القادم)

محمد حافظ رمضان